دراسة نقدية للتيار الإنسانوي من عصر النهضة إلى الآن - (أوغست كونت أنموذجاً)

د. عبدالعزيز الصوافي[1]

ملخّص

هذه المقالة تمُثِّل استقراءً لأبرز مظاهر المذهب الإنساني (HUMANISM) وتياراته التاريخية في المراحل المختلفة لثقافة الغرب وحضارته، مع بيان خصائص كلِّ مرحلة طبقًا للتَّبويبات المعروفة، ابتداء من مرحلة عصر النهضة، فعصر التَّنوير، وصولا إلى المرحلة المعاصرة، وتتحدَّد مشكلة البحث في الإجابة عن تساؤل رئيسيٍّ عن أهمِّ تيارات الإنسانوية، وأهمِّ النُّقود لها، مع التركيز على الفلسفة الوضعية لـ(أوغست كونت - Auguste Comte). وبالنظر إلى طبيعة الموضوع الذي يُعالجه البحثُ، فقد اعتُمد منهجٌ مركَّبٌ يُزاوج بين بحث التاريخ والوصف والتحليل والنقد، حيث اعتُمد المنهج الوصفي في التعريف بالتيار الإنساني، وبيان أهمِّ فروعِه التاريخية وأنواعه، ثم استُخدم المنهج التاريخي لتتبُّع جذور النَّزعة الإنسانية، ثم المنهج التَّحليليُّ النَّقديُّ لمُعالَجة التباسات هذا المفهوم وإشكالاته في الفلسفة الغربية، وموقف الدين الإسلامي منه. وقد تمَّ التوصُّل إلى أن مفهوم الإنسانوية مفهومٌ متعدِّدُ المعاني، ويكتنفه غموض يجعله مفهومًا ملتبسًا قابلاً لشمول تصوُّرات مختلفة، بحسب المَرجعِيَّات والسِّياقات المعرفية، وأهم النُّقود له هو فقدانه لمعرفة حقيقة الإنسان وأبعاده الوجودية، وصولاً إلى محاولة تحليل أسباب انقلاب نزعة الإنسانوية من نزعة تهدف إلى الإعلاء من شأن الإنسان إلى نزعة ساهمت في انحطاط الإنسان، نتيجة اختزالها حقيقته في البُعد المادي، وإغفالها الأبعاد الأخرى الروحية والأخلاقية، واقتصارها على المنهج الوضعي والأدوات التجريبية كأدوات معرفية وحيدة، ورفض جميع الأدوات المعرفية الأخرى كالعقل البُرهاني والشُّهود.

الكلمات المفتاحية:

التيار الإنساني، عصر النهضة، عصر التنوير، الفلسفة الوضعية، أوغست كونت، العصر الراهن.

1 - دكتوراة في التفسير وعلوم القرآن - جامعة المصطفى العالمية – قم المقدسة

مقدمة

بدأت حياة الإنسان على هذه الأرض بامتزاج تامٍّ ما بين المادة والروح، وما بين عالَم الغيب والواقع، ثم ابتعد الإنسان شيئًا فشيئا عن عالم الروح لانغماسه بالمادة، إلا أنه لم يلبث أن عاد ليبحث عن ذلك الطريق الخفيِّ تلبيةً لحاجته الفطرية، ولكنه اختار هذه المرة أن يستكشف عالم الغيب والروح بعقله وحواسِّه المُجرَّدة، دون أن تكون لديه الأدوات المعرفية التي تُعينه على بحث ذلك المُنزلَق الخطير، فلم يستطع بالطبع أن يصل إلى الحقيقة، وقصَّر به البحثُ إلى فرضية تقول: إن هذا الكون ماديٌّ، لا صانعَ له، وإنه وُجد صدفةً، وإن الموت هو نهاية كلِّ حيٍّ.

وهنا تعارضَ ما وصل إليه هذا التَّيارُ تمامًا مع ما جاءت به الأديان المُنزَّلة، وعلى إثر ذلك اعتنق البعضُ اتِّجاه «محورية الإنسان»، وقد بلغت ذروةُ ذلك في عصر النهضة، إلى أن تمَّ تنظيمها في مرحلة متأخِّرة، وتركَت تأثيرها حتى الآن على أكثر التيارات الفكرية في الغرب في عصرنا الراهن، وهي الرؤية التي تَسعى ما أمكنها إلى وضع الإنسان في مركز تَفكيرها، وتعمل قبل كلِّ شيء على تأصيل تطوير طاقات الإنسان وتفجيرها. وبطبيعة الحال فإن هذه الرؤية لم تسرْ على وتيرة واحدة ومتناغمة في تاريخ الثقافة والفلسفة الغربية، بل شهدت مُنعطفاتٍ كثيرةً، ولا سيَّما بعد مرحلة عصر النهضة، وهذا الأمر يستدعي منتهى الدقة في تقديم تعريفٍ واضح عن الإنسانوية، بحيث يكون جامعًا ومانعًا، والابتعاد عن التعاريف السطحية وغير العلمية.

لقد أصبحت النظرة الإنسانوية ومفاهيمُها اليومَ شائعةً في الغرب، وليست مجرَّد مدرسةٍ من المدارس الفكريّة والفلسفيّة أو في عرضها، بحيث فرضَت نفسَها ورؤيتَها على أغلب الاتِّجاهات والفعاليات الفكريّة هناك، بل تُعَدُّ الخلفيةَ الفكريّة لكثيرٍ من المدارس والنظريّات الفلسفيّة الحديثة، كالليبراليّة والعلمانيّة والماركسيّة والوجودية وغيرها من المذاهب الّتي نشأت عن

الإنسانوية، وأصبحت القراءة التاريخية للأنسنة وتحليل السياقات التي نشأت فيها هي المدخل الصحيح لإدراك الأبعاد المُتعدِّدة للنَّزعة الإنسانية في الغرب وآثارها في الفكر والحضارة الغربية.

أولًا: خصائص المراحل التاريخية للإنسانوية من عصر النهضة إلى العصر الراهن

قام (فريدريك إدواردز - Frédéric Edwards) -الباحث في الشأن الإنسانوي- في مقالة جامعة له وفي فهرسة عامّة، بتلخيص أهمِّ التيارات الإنسانوية في الثقافة الغربية قديمًا وحديثًا، نذكر منها الآتي[1]:

1 - الإنسانوية في عصر النهضة

وهي الرؤية التي تبلورت في مرحلة عصر النَّهضة بفعل الاهتمام بالإنسان وقيمته وكرامته، وتمَّ بسطُها في البُعد الديني وغير الديني، وأهم سمات عصر النهضة هو فكرة إحياء التراث القديم أو حركة إحياء العلوم، وعُرف المشتغلون بهذه الدراسات باسم (الإنسانيِّين)؛ لأنهم كانوا يَهتمُّون بدراسة الإنسان نفسه، وهو ما يعد أمرًا جديدًا في تاريخ الغرب، وكانوا يقولون لا بدَّ أن نرجع إلى اليونانيين، لا بدَّ أن نعود لتلك الفترة، فكان يُقصَد منها في البداية الدلالة على نظام تعليمي وتربوي جديد يتأسَّس عن طريق الثقافة والآداب القديمة، وبالأخص الآداب اللاتينية والإغريقية، باعتبارها مثلاً أعلى في السلوك والمعرفة[2].

لقد كانت الإنسانوية في بداياتها في عصر النهضة حركةً ثقافيّةً وفنِّيّةً وأدبيّةً، لها اهتمام بالغ بالجمال من جهة البحثِ عنه ومن جهة تذوُّقه، فالإنسانوية بدأت في ذلك العصر بالفن كما بدأت النهضة به، وكان هنالك توجُّهٌ لدى النُّخبة آنذاك بلزوم الرجوع إلى الإنسان، وعلى هذا الأساس يُوجد هناك نوعان من الإنسانوية في ذيل إنسانوية عصر النهضة:

أ - الإنسانوية الدينية في مرحلة عصر النهضة

لقد كان الإنسانويُّون في البلدان الأوروبية -ولا سيَّما منها إنجلترا وفرنسا وسويسرا- يُبدون

1 - انظر: محمد هادي طلعتي: الهيومانية دراسة تحليلية للجذور والأسس، ص.ص. 25-27.

2 - انظر: عبدالرزاق الداوي: موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر، ص.ص. 5 - 6.

ميلاً نحو المسائل الدينية والتخطيط من أجل إحياء الكنيسة المسيحية والمجتمع المسيحي بشكل عامٍّ؛ حيث كانوا يَرَون أن المجتمع المسيحيَّ يجب العمل على إصلاحه بالأدوات والوسائل العقلانية والأخلاقية[1]. وعليه يُعتبرَ هذا البُعد الإنسانويُّ الجديد في المسيحية هو الذي أدَّى إلى ظهور حركة الإصلاح الدِّيني في العالم المسيحي على يد رجال الدِّين المسيحيِّين الذين يُعرَفون بالعلماء البروتستانتيِّين، ويُعتبرَون الروّاد في الاتِّجاه.

ب - الإنسانوية غير الدِّينية في مرحلة عصر النهضة

ظهرت الإنسانويةُ غيرُ الدينية في إيطاليا بشكل أكبر عندما اتَّجه الاهتمامُ الأصلي للإنسانويِّين في إيطاليا نحو إحياء النصوص الكلاسيكية، والعودة إلى ثقافة المرحلة القديمة؛ ومن هنا فقد كانوا يُبدون ميلاً كبيراً إلى العلوم الإنسانية والأدبية، ويُعتبرَ رُوّادُ هذه الإنسانوية هم المفكِّرين اللادينيِّين الذين قاموا بالدَّور الأساس في تغيير وجهةِ الناس من السماء إلى الأرض، ومن الدِّين إلى الفلسفة العلمانيّة.

2 - الإنسانوية التنويرية

وهي استمرارٌ لإنسانوية عصر النهضة، كنتاج للفلسفة الوضعية في القرن الثامن عشر، والتَّوجُّهات التحرُّرية للقرن التاسع عشر الميلادي، وسُمِّي بعصر الفصل بين الفلسفة والعلم، أو عصر سيادة الحِسِّ الذي يَعتبِر الواقعَ أو الطبيعة مصدرَ المعرفة، حيث سادت المادة والطبيعة على الدِّين والعقل، «... وكما يُسمَّى هذا العصر بـ'عصر التنوير' يُسمَّى أيضًا بـ'العصر الإنساني' [...] وكذا يُسمَّى بعصر الـ'Deisin' أي: عصر الإيمان الفلسفي بإله ليس له وحيٌ، وليس بخالق للعالم؛ إذ كلُّ مُسمَّيات هذه الأسماء تُعتبَرُ من خواصِّه، فالتَّنوير: لا يُقصَد به إلا إبعاد الدِّين عن مجال التوجيه، وإحلال العقل [الوضعي] محلَّه فيه.»[2].

وتمتاز هذه المرحلة بجملة من الخصائص أهمُّها أنها تُبدي اهتمامًا أكبر بالعقل الوضعي والتجارب البشرية والاحتياجات والرغبات الإنسانية من المرحلة السابقة. وكذلك ميلها التَّصاعدي للخروجِ عن المباني الميتافيزيقية والدِّينية والوحيانية وما بعد الطبيعية، وكلِّ ما هو

1 - Encyclopedia of Brittanica, vol. 15, p.p. 671 – 673.

2 - محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ص252.

غير إنساني، وقد غلب عليها الطابع الفلسفيُّ والفكريُّ أكثرَ من الطابع الفنِّيّ والثقافيِّ قياسًا بإنسانوية عصر النهضة، حيث تبدَّلَت الإنسانوية إلى نظام فلسفي ومدرسة فكرية تَنحصر العنايةُ فيها على تنظيم الحياة الدُّنيوية والمجتمع الإنساني بالعقل الإنساني المادي، كما تميَّزَتْ هذه الإنسانوية، أو هذا التيار الفلسفي، بأنَّها تعاملَت مع المسيحية كأنها «أسطورة» تَنسجم مع أوهام الناس العاديِّين وحوائجهم الأخلاقية؛ إذ لا يَنبغي لأصحاب الفِكر أن يأخذوها – أي المسيحية– على مَحمَلِ الجِدِّ[1].

كان علماء التنوير بشكل رئيسٍ هم كبار ومشاهير مجالات العلم والأدب والثقافة والفلسفة آنذاك، من أمثال: (فولتير 1694م - 1778م - Voltaire)، و(مونتسكيو 1689م - 1755م - Montesquieu)، و(جون لوك - John Locke)، و(ديفيد هيوم - David Hume)، و(دي كوندورسيه 1743 ـ 1794 م - The Marquise de Condorcet)، و(أوغست كونت) .. وغيرهم.

لقد اهتمَّ فلاسفة عصر التَّنوير بالإنسان على نحوٍ أكثر من اهتمام أسلافهم به في المراحل السابقة، وكانوا يَسعَون إلى إضفاء منزلة عليه تتناسب مع التقدُّم البشري، يقول (أرنست كاسيرر - Ernst Cassirer)، نقلاً عن (ألكساندر بوب - Alexander Pope): «إنَّ الموضوع الحقيقيَّ لتحقيق البشرية هو الإنسان.»[2]. كما أنَّ من بين الخصائص الهامّة، لإنسانوية عصر التنوير، اتِّجاهَها المُناوِئ للدِّين، حيث تقترب في ذلك من آراء الإنسانوية الإلحادية المعاصرة إلى حدٍّ كبير، باعتمادها رؤية ترى أن تحرُّر الإنسان رهنٌ بالتَّخلِّي عن التكاليف الدِّينية والقيود التي تَفرِضُها الكنيسة على الإنسان.

3 - الإنسانوية المعاصرة

هي امتداد لإنسانوية عصر التَّنوير السابقة، وفي الحقيقة فإنه على الرغم من عدم التَّصريح باسم الإنسانوية في المدارس الفلسفية في المرحلة المعاصرة للغرب، إلا أن الكثير من الأفكار والنظريات لديها تقوم على أساس الاهتمام بالإنسان، حيث إن مبادئها متعشِّقة بمبادئ المدارس الفلسفية المعاصرة، وخاصةً المدارس الفلسفية الأربع الكبرى: الماركسية، والبراغماتية،

1 - روح الله الموسوي: جدلية الرؤية الأنسنية والرؤية العقدية، ص21.

2 - أرنست كاسيرر: رسالهاي درباره انسان [رسالة حول الإنسان]، ص38.

والشخصانية، وقبلها جميعًا الفلسفة الوجودية، حيث أقامت قسمًا من نظرياتها أو جميع آرائها على أساس المذهب الإنساني[1]، كما ظهرت في العقود الثلاثة الأخيرة حركاتٌ بأسماء مُستقِلّة، مثل «الإنسانوية العلمانية»، وقد قامت بنشاطات واسعة أيضًا. وهنالك «الإنسانوية الإلحادية» المُقتبَسة بشكل أو بآخر من أفكار (كارل ماركس 1818م - 1883م - Karl Marx) و(أوجست كونت) (1798م - 1857م)[2].

وتتميَّز الإنسانوية في العصر الراهن بأنها أنسنةٌ إلحادية صريحة؛ لأنها تحمل أكثرَ الآراء المخالفة للدِّين عدائيّةً، القائلة بأنَّ الإنسان هو مركز ثقل الوجود بديلاً عن محورية الله في الأفكار الدِّينية. وإن وجود الإنسان هو وجود أصيل، في حين يُعَدُّ وجود الله من الاعتبارات الذِّهنية، وأنه من صُنع واختلاق الذِّهن بزعمهم.

ثانيًا: مباني التيار الإنسانوي ونقدها مع التركيز على الفلسفة الوضعية لـ(أوغست كونت)

1 - مباني التيار الإنسانوي الأساسية

إنَّ كلَّ المدارس التي تتَّسم بصفة الإنسانوية تشترك في بعض المباني الأساسية، وأهمها:

أ - الإنسان هو المحور وليس الإله

يحتلُّ الإنسان في الإنسانوية مقامَ الإله، وبناءً على هٰذا المَبنى ليس على الإنسان تكليفٌ تجاه غيره، ولا يَحِقُّ لأحد أن يجعل له قيدًا أو حدًّا، وليس هناك قيمٌ مطلقةٌ وراء الإنسان، وقد دعا (أوجست كونت) إلى الاستغناء عن اللاهوت والميتافيزيقيا، وزعم وجود حاجة إلى ديانة جديدة أطلَق عليها ديانة الإنسانية، تلك الديانة التي جعلت من الإنسان عابدًا ومعبودًا في الوقت نفسه، حيث كان (أوجست كونت) يهدف إلى تأسيس اتحاد في أوروبا يقوم على أساس «محبة البشر»؛ حيث يعمل على تثبيت أُسس «دين الإنسانية» في مختلف أبعاده الفلسفية والسياسية والاجتماعية، واليوم لا يزال «الاتحاد الأخلاقي البريطاني» يواصل نشاطه الإنسانوي على أساس

1 - Frederick Edwards: “What is Humanism”; in: The American Humanist Association.com

2 - انظر: محمد هادي طلعتي: الهيومانية دراسة تحليلية للجذور والأسس، ص189.

أفكار وآراء (أوجست كونت)[1].

ب - العقل القائم بالذات هو البعد الأساسيّ في الوجود الإنسانيّ

تذهب الإنسانوية إلى أنَّ للعقل الإنساني القدرةَ على معرفة نفسه والوجود، وأن بإمكانه أيضًا بلوغ السعادة من خلال معرفة طريق الوصول إليها، وأنه قادر لوحده على معرفة جميع القيم الأخلاقيّة والحقوقيّة، ولا يحتاج إلى الدِّين والوحي لمعرفة كيف تكون الحياة الأخلاقيّة، وبهٰذا تكون العلمانيّة عنصرًا من عناصر التيار الإنسانوي.

ج - المنهج الحِسِّي التجريبيّ هو المنهج العلمي الوحيد المُعتبَرَ في دراسة الواقع

الإنسانويةُ تذهب في ظلِّ الإنجازات العلميّة التجريبية والتطوُّرات الصناعيّة الهائلة في الغرب إلى أن الأمر الذي لا ينكشف بالعقل التجريبيّ غيرُ قابلٍ للكشف مُطلَقًا، بل يعتقد بعضُهم بعدم وجوده؛ لأنَّ ما لا يمُكِن كشفُه للإنسان هو غيرُ موجودٍ بحسب اعتقادهم، وبهٰذا يَغدو الإنسانويُّون مُلحِدين، أو على الأقلِّ لا- أدريين؛ يقول (ستيفن لو - Stephen Law)[2]: «الإنسانويُّون إمّا مُلحِدون وإمَّا –على الأقل- لا-أدريون. إنَّهم يتشكَّكون في الزعم بوجود إلهٍ أو آلهة، ويُشكِّكون في وجود الملائكة والشياطين وغيرها من مثل هذه الكيانات فوق الطبيعية.»[3].

د - الإنسان مالك لوجوده ومصيره

الإنسان بحسب اعتقاد الإنسانوية هو موجودٌ عالِمٌ مريدٌ ومختارٌ، وليس خاضعًا للطبيعة والتاريخ، ولما كان الإنسان بحسب هذه الرؤية موجودًا قائمًا بالذات، وهو بنفسه الفاعل والغاية، فهو المسؤول عن أفراحه وأتراحه، ومصيرُه يكون بيده، وينبغي أن يُغيِّرَ مصيرَه والطبيعةَ بالاتِّكاء على ذاته فحسب.

---

1 - Paolo Castellina & Alison Bailey: "Christian Church or Religious Humanism?", in: www.secularHumanism.com.

2 - فيلسوف إنجليزي ومحاضر في الفلسفة في «كلية هيثروب» في «جامعة لندن» ورئيس تحرير مجلة الفكر الصادرة عن المعهد الملكي للفلسفة.

3 - ستيفن لو: الإنسانوية - مقدمة قصيرة جدًّا، ص9.

ثالثًا: نقد مباني التيار الإنسانوي مع التركيز على الفلسفة الوضعية لـ(أوغست كونت)

وهي مبانٍ غير تامّة. ونُشير فيما يلي إلى بعض وأهم الإشكالات التي تُعاني منها تلك الإنسانوية وبالخصوص عند (أوغست كونت):

1 - نقد الأسس والمباني المعرفية (الأبستمولوجيا - Epistemology) عند المذهب الإنساني (HUMANISM)

يتمُّ نقدُ البُعد المعرفي له بنقد الأُسس والمبادئ المعرفية (الأبستمولوجيا Epistemology) التي تُبني عليها الإنسانوية.

أ - نقد فكرة حصر المعرفة الواقعية بالتجربة

إنَّ هناك طرقًا أخرى لكسب المعرفة كالعقل والشهود والوحي، بَيْدَ أنَّنا وجدنا أنَّ الرؤية الإنسانويّة تعتمد على المنهج التجريبيِّ فقط، وتُعوِّل عليه على نطاق واسع يشمل حتّى العلوم الإنسانيّة، مثل علم الاجتماع وعلم النفس وغيرهما. ومن جانب آخر فإنَّ عالَم العَين والواقع ليس مَحدودًا بالعالَم المادِّيّ، بل يشمل العالَمَ الميتافيزيقيّ الذي لا تَنالُه يدُ التجربة أيضًا، أضف إلى ذٰلك أنَّ «القضيّة التي تقبل التجربة لها معنًى دون غيرها»، والتي تقول بها الوضعيّة المنطقيّة نفسها ليست قضيّةً تجريبيّةً ولا تقبل التجربة، فليس لها معنًى أيضًا، وهٰكذا تُبطل الإنسانويةُ نفسَها بنفسها.

والصحيح هو الاعتقاد مَبدئيًّا بإمكانيّة حجّيّة كلٍّ من الحسّ والعقل والشهود والوحي في الدائرة الخاصّة بكلٍّ منها، ولا يصحُّ استبدال أيٍّ منها بالآخر، كما يُمكن مناقشتُهم بأن هذه الأداة (التجربة) لا يُمكِنُها أن تلعب دورَ المعيار القطعي في تشخيص الواقع دائمًا؛ لاختلاف التجارب الإنسانية بحسب البيئات المختلفة، وتداخل عوامل متعدِّدة في تحديد قراءتها بما يصعب معه الأخذُ بتشخيصها؛ فالتجربة البشرية وإن لم تكن مرفوضة على إطلاقها، لكونها طريقًا قد يعتمده العقلاء في بعض الموارد، إلا أنه لا يُمكِن الأخذُ بها في تشريع القوانين الاجتماعية والسياسية لجملة من الأسباب، من أهمها:

■ إن الأخذ بالتجربة هنا، وبخلاف البرُهان المنطقي، لا يُمكِن القَطعُ بتشخيصه، لأن القَطعَ في الموضوع التجريبي صعبٌ، خصوصًا في مجال العلوم الإنسانية؛ لأنَّ الاستقراء التامَّ صعبٌ

إن لم يكن مُستحيلاً في تلك الموارد؛ وتحصيل القياس الخفيِّ الذي يُحقِّق صحّةَ التَّجربة ويُميزها عن الاستقراء غير التام هو أمر أصعب، وعليه فليس من السهولة تحصيل اليقين المنطقيّ في مجال الاستفادة من التجارب في مجال تشريع القوانين.

■ على فرض حصول يقينٍ تجريبي بثبوت المحمول للموضوع في مثل تلك الموارد؛ فإن مثل هذا اليقين في أغلب الأحيان يكون من جانب واحد، أي أنه يتحقَّق القَطعُ بثبوت المحمول للموضوع، ولكن لا يُمكِن أبدًا أن نجد طريقًا لحصر المحمول في الموضوع، وانحصار اتِّصاف الموضوع بالمحمول، لأن نتيجة التجارب المُتكرِّرة هي أننا كلَّما جرَّبنا واختبرنا وجدنا أن هذا الموضوع له هذا المحمول، وذاك المحمول قد ثبت لذلك الموضوع (أي القطع بالدوام)، لكن لا يحصل لنا يقينٌ بضرورة ثبوت المحمول للموضوع، بحيث لو حصل عن طريق سبب آخر لَلَزِمَ الامتناع أو الاستحالة العقلية، أي إن القطع التجريبي لا يُفيد أكثر من «الدوام» ولا يُثبت الضرورة[1].

ب - الإنسانوية في بُعدها المعرفيّ تقود إلى السَّفسطة[2]

لما كان الإنسانُ عندَهم هو محور الحقائق، وليس هناك معيار أو ميزان فوق معيار الإنسان، الّي هو المرجع في المعرفة الصحيحة، يتبادر إلى الذِّهن سؤال يطرح نفسه بقوّة هو: أيُّ إنسانٍ هو المرجع والمعيار؟ تُجيب الإنسانوية بأنَّ أيَّ إنسانٍ بمفرده هو المعيار، ويتمخَّض عن هٰذه الرؤية القولُ بالتعدُّدية المعرفية من جهةٍ، والفردية من جهةٍ أخرى، وهما من الميِّزات والخصوصيّات الأساسيّة فيها، أمّا التعدُّديّة المعرفيّة (Individualism) فتَستدعي النسبيّة المعرفيّة التي تُؤدِّي بدورها إلى التَّشكُّكيّة المعرفيّة التي يرفضها كلُّ عقلٍ سليمٍ، فالإنسانوية مآلها السَّفسطة الباطلة عقلاً؛ لأن منشأها إما خيال فاسد وإما معانَدة للحقِّ.

ج - الإنسانوية في بعدها المعرفيّ تقود إلى تأليه الإنسان

الإنسان يُدرِك بفطرته السَّليمة أنَّ هناك إلهًا قد خلقَه، ويبحث عن طُرُقٍ للارتباط به وعبادته،

---

1 - انظر: عبد الله جوادي الآملي: تسنيم في تفسير القرآن، ج1، ص.ص. 215-216.

2 - السفسطة: هي قياس مركب من الوهميات، الغرض منه إفحام الخصم أو إسكاته. والسفسطائيون يُنكرون الحِسِّيات والبَديهيات وغيرها مما أقرَّه المنطقُ أو قبلته أحوال المجتمع السليم.

لكي يرجع ويأوي إلى مبدئه اللامتناهي، مُستمدًّا منه العونَ والكمال، في حين تعمل الإنسانوية على قطع هٰذه الصِّلة الذاتيّة بين الإنسان وخالقه، وتترك الإنسان ونفسَه، وتُبعِدُه عن هويّته الملكوتيّة. وبذلك تُعيقُ سعيَه نحو كماله المَنشود، وفي الحقيقة أنّ من ابتعد عن الإله فقد ابتعدَ عن معرفة هويّته الحقيقيّة، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ [الحشر: 19]، وعن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): «مَن عرفَ نفسَه فقد عرفَ رَبَّه.» [1].

لقد سعت الإنسانوية إلى تحرير الإنسان من عبادة الله، ولٰكنْ أرغمته في المقابل على عبادة الأصنام المُتعدِّدة؛ لأنّها بدلاً عن عبادة الله جعلت أناه في مكان الله، في حين أنّ عبادة الـ«أنا» هو المبدأ الذي يقود إلى كلِّ نوعٍ من أنواع عبادة الأصنام، والنتيجة الطبيعية لذلك أن الإنسانوية قد جعلت البُعدَ الحيوانيَّ للإنسان إلٰهه، وهٰذا المعنى قريبٌ من مضمون الآية المباركة القائلة: ﴿**أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلا**﴾ [الفرقان: 43].

ولا غبارَ على وهن نظريّة الإنسانوية في إفراطها وتفريطها في حقيقة الإنسان، فكيف يُمكِن للإنسان المَحدود المُحتاج، الذي أوّلُه نطفةٌ وآخِرُه جيفةٌ، أن يكون إلٰهًا بأن تفرضه مستقلاً في أحكامه غنيًّا بخبراته؟ والحال أنَّ الإنسان محتاجٌ في أصل وجوده، بينما جعلَ أصحابُ المذهب الإنساني الإنسانَ بديلاً عن الله، مع الاقتصار على جانبه المادي فقط!

هٰذا التَّعامل الإلهيُّ مع الإنسان الذي تسافل إلى موجودٍ ذي ميولٍ حيوانيّة، وحصرَ الجهدَ بتأمين منافعه المادّيّة فقط، سبَّب الكثير من المشاكل والتناقضات للإنسان الحداثيّ، منها: غفلة الفكر الإنسانوي عن الكمال الحقيقيّ للإنسان، نتيجة عدم التحكُّم بالأهواء والميول النفسانيّة، بل وجدنا أنَّ هٰذا الفكر يُشجِّع على ترسيخ الرذائل مثل المجون والظلم والتوحُّش والفساد وسفك الدماء والعدوان، لكن الصحيح أن الإنسان لن يكون إنسانًا حقيقيًّا إلا بتحرير عقله وقلبه، وليس بتحرير وإطلاق مُيولِه وشَهواتِه التي تُقيِّد عقلَه وتختم على قلبه.

د - الإنسانوية مآلها الطبيعي هتك حقوق الآخرين وممارسة الظلم عليهم

إنَّ الإنسان الإنسانوي يَعدُّ نفسه وهواهُ إلٰهًا له، ولذا فهو لا يعتقد بالتَّكليف ولا يعترف إلا

1 - التميمي الآمدي: غرر الحكم ودرر الكلم، ص588، الحكمة: 301.

بحقوقه الشخصيّة. وهذا ما يَجعله يَعي حقوقَه بنفسه، ولا يَرى نفسَه محكومًا بأيّة تكاليف، فله حقٌّ وليس عليه واجبٌ وفق هٰذه الرؤية، وهٰكذا تصل الإنسانوية إلى الحرّيّة المُطلَقة التي تنتهي بدورها إلى هتك حقوق الآخرين وممارسة الظُّلم عليهم، كما وصلت إلى ذٰلك عمليًّا النازيّة والفاشيّة والأنظمة الليبرالية في أوربّا، بارتكابها أفظع الجرائم الإنسانيّة، مثل الحَربَين العالميَّتَين، واستعمار البلدان الضعيفة، وإنتاج أسلحة الدمار الشامل واستعمالها، وغير ذلك، حيث آل بها الحال إلى العَدَمية والعبثية وسيطرة النسبية على كل شيء.

والإنسان غير الملتزم بقيود الدِّين والعقل والأخلاق ليس حُرًّا حقيقةً كما تدَّعي الإنسانوية؛ بل هو مقيّدٌ بميوله، وعبدٌ لأهوائه، ومتحرِّرٌ من أي قيد أخلاقي أو شرعي، فهو مستعدٌّ لكي يقوم بأيِّ عملٍ إجراميٍّ من أجل الوصول إلى غاياته الشخصيّة؛ فالإنسانوية بعدما سرَت إلى الأخلاق والقِيم والحقوق أنشأت الفرديةَ التّي تتعدَّد معايير الحُسن والقُبح على أساسها، فيصل الإنسانُ إلى درجة من التسافُل يتعذَّر معها الوصول إلى التَّفاهم والوئام بين الناس؛ لأنهم مُنغمِسون في عوالمهم الخاصّة بهم، ومُنبهِرون بقناعاتهم الفردية، وهٰكذا، يبعد الوصول أيضًا إلى السِّلم العالميّ والتماسك بين مختلف شرائح المجتمع؛ فالإنسانوية بالنظرة الدقيقة لا تُؤدّي إلا إلى الواقع المُضادِّ لما تتطلع وتهدف إليه الإنسانية من إنسجام ووئام وتعاون.

تلك كانت المرجعية التي بُنيت عليها الإنسانوية، والمتُمثلة بحصر البعد المعرفي لها بالجانب التَّجريبي الحِسِّي فقط، ورفضها القضايا العقلية الكلية غير الخاضعة للتجربة والحِسِّ، وقد تقدَّم نقدُها سابقًا.

2 - نقد الأسس والمبادئ الوجودية (Ontology) في المذهب الإنساني (HUMANISM)

وأهم النُّقود المُوجَّهة للأُسس والمبادئ الوجودية (الأنطولوجيا) (Ontology) عند المذهب الإنساني (HUMANISM) خصوصًا عند (أوغست كونت):

أ - تهافت نظريته الوضعية في رفضها إثبات عالم الغيب وما وراء الطبيعة

الفلسفة الوضعية عند (أوغست كونت) تُنكر عالَمَ الغَيب كلَّه، وتقف عند عالم الظَّواهر المَحسوس والتَّجربة، ولا تُقيم اعتبارًا للأحكام العقلية الكلِّية غير المحسوسة، وهذا لا يَنسجم مع حقيقة "أنَّ أصول التجربة وحجّيتَها - بمعنى جواز الاستناد إليها في مقام البحث العلمي-

مَبنيّة على أصول عقلية محضة غير مُجرَّبة ولا محسوسة، كامتناع اجتماع النَّقيضَين، وأصل العِلِّية - بمعنى أن لكل حادث عِلّةً مؤثِّرة- وأن الاتفاقيَّ لا يكون دائميًّا ولا أكثريًّا ... وهذا الاستناد إلى الأصول العقلية المجردة يُبطِل أصلَ كلامهم في عدم اعتبار الأحكام العقلية غير المحسوسة، وكلِّ ما لا يمُكن إخضاعُه للتجربة الحسِّية[1]، وعليه يَنبغي للاتجاه التجريبي الوقوفُ عند حدِّه المناسب؛ لأنَّ التجربة كما لا يَتسنَّى لها إثباتُ الأمور الماورائية لفقدانها الآليات المُتلائمة معها، فإنها لا تستطيع كذلك إنكارَها.

ب - نقد رؤيتهم الوجودية المادية للحياة الدنيوية

ويتركَّز نقدُها في اعتبارهم الحياة الدُّنيوية هي حياتنا الوحيدة والفرصة الأولى والأخيرة[2]، وهذا ما سيُؤثِّر بالتأكيد على تحديد هدفهم الأساسيّ منها، فهدفُهم الأساسيُّ عندئذ هو كيفية تنظيم الحياة الفرديّة والاجتماعيّة في هٰذه الدنيا بما يُلبِّي احتياجاتِهم المادية فقط، وليس الاهتمام بما يُريده الله منهم، أو الالتفات إلى تحقيق السعادة الأخرويّة. وقيمة الإنسان الحقيقية وأفضليّته لدى هؤلاء تتحدَّد بهٰذه القدرة التي تُمكِّنه من تنظيم حياته الدُّنيويّة وتدبيرها، وليس بأن يكون له بُعدٌ ملكوتيٌّ؛ فالهدف من الحياة هو بناء الدُّنيا والحصول على حياة دنيويّةٍ أفضل، وليس الوصول إلى الرُّقيِّ المعنويِّ والقرب الإلٰهيّ[3]، على حين يعتقد الفكر الديني الإسلامي بوجود عالَم وراء هذا العالم، ويُسمِّيه عالَمَ الآخرة، والاعتقاد به عنصرٌ أساسيٌّ في كل شريعة لها صلة بالسماء، بحيث تُصبحُ الشرائع بدونه مسالَكَ بشريّةً ماديّةً لا تمَتُّ إلى الله بصِلة.

3 - نقد الأسس والمبادئ الإنسانية (الأنثروبولوجية) (Anthropology) في المذهب الإنساني (HUMANISM)

يهتمُّ البحث الأنثروبولوجيُّ بدراسة الإنسان من كلِّ جوانبه وأبعاده[4]، بهدف فَهمِه بشكل

---

1 - أيمن المصري: أصول المعرفة و المنهج العقلي، ص94.

2 - Law Stephen: Humanism: A Very Short Introduction, p. 2.

3 - انظر: روح الله الموسوي: «جدلية الرؤية الأنسنية والرؤية العقدية»، ص24.

4 - ونقصد بالأبعاد الوجودية للإنسان الأبعاد التي بها قوام وجود الإنسان ونشأتهم، والتي بمجموعها يتميَّز الإنسان عن سائر المخلوقات الأخرى.

مُتكامل ومُترابط، وفَهم حياته في الماضي وفي الحاضر، وأهمُّ النُّقود المُوجَّهة للأُسس والمبادئ الإنسانية في المذهب الإنساني (HUMANISM):

أ - إغفال الجانب الروحيّ من الإنسان

الإنسانوية، مع تجاهلها للروح الإنسانيّة، تكون قد غَفلت عن البعد الأساسيِّ في وجود الإنسان؛ وأيُّ اغترابٍ أفجع من أن يكون الإنسان غريبًا عن أهمِّ أبعاده الوجودية، إضافةً إلى ذٰلك فإنّ البُعد الرُّوحيَّ هو العنصر الرئيسيُّ في تحقيق سعادة الإنسان وتحصيله لكمالاته وفضائله، بناءً على ذٰلك، تتَّصف الرؤية الأنسنيّة تجاه الإنسان بأنهّا محدودةُ النِّطاق، تتمحور حول السَّعادة الدنيويّة فقط، في حين أنَّ الدِّين لا يَحصر اهتمامَه بالإنسان في تحصيل السعادة الدنيويّة فحسب، بل يُقدِّم تعاليمَه للوصول بالإنسان إلى السَّعادة الأخرويّة أيضًا، والتي لها الأولويّة على السعادة الدُّنيويّة؛ لأنّ عالم الآخرة هو مكان الحياة الأبدية، وليست الحياة الدنيويّة التي ما هي إلا لعبٌ ولهوٌ. قال تعالى: ﴿**وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ**﴾ [الأنعام: 32].

ب - تهافت نظريته الوضعية في إعلائها من شأن الإنسان والمساواة بين الأفراد

المذهب الإنساني عند (أوغست كونت) يزعم أنَّه يُعلي من شأن الإنسانية، ويُؤمِن بمبدأ أن الإنسان هو محطُّ التقديس الحقيقي والكمال[1]، لكنَّه في الواقع يتناقض مع نفسه حينما يكون تركيزه يَنصبُّ على الإعلاء من شأن الغرائز الإنسانية والعواطف والأهواء البشرية، وهو ما يُخالف أصلَ النَّظرية تمامًا وما كانت تدعو إليه من تمجيدٍ للعقلانية وتحقير للجنس وبقية الغرائز الحيوانية.

ومن ناحية أخرى فإنَّ ذلك المذهب لا يتلاءم مع مبادئه الإنسانية، بتبنِّيه نظرية التطوُّر الداروينيّة، التي هي التفسير المَقبول لديهم لنشأة الإنسان، والتي تُقرِّر التَّفاوُتَ الطبيعيَّ بين الأجناس والأعراق، في حين تزعُمُ تبنِّيها المساواةَ بين البشر؛ «فقد ذهبت الدَّاروينيّة بتطبيقها في علم الاجتماع إلى رفض المساواة الإنسانية رفضًا تامًّا، وهذا ما يتناقض مع مبدأ المساواة

1 - انظر: لوك فيري: الإنسان المؤله، ص44.

الإنسانية الذي يُعتبرُ الأساسَ الفلسفيَّ لفكرة المواطنة في النُّظم السياسية الحداثية.»[1]، كما أن الاعتقاد بنظرية التطوُّر الداروينيّة سيَحرم الإنسانَ مركزيّتَه وقيمتَه الاستثنائية في هذا العالم؛ إذ هي تجعل من الإنسان جزءًا من السلسلة الحيوانية لا أكثر[2].

ج - نقد المرجعية الإنسانوية لحقوق الإنسان عند أوغست كونت

إنَّ نظرة الإنسانوية الخاطئة والسطحيةَ إلى حقيقة الإنسان، والهدف من وجوده، سوف تترك آثارَها على منظومة المفاهيم المتعلِّقة بالإنسان، مثل حقوق الإنسان وكرامته، فتصبغها بالسطحيّة، وتجعلها خاطئةً أيضًا؛ ولذلك فإنّ الإنسان الغربيَّ يُعاني من أزمة الهويّة وفقدانها.

يتركَّز النَّقد على فشل المذهب الوضعي عند (أوغست كونت) أنه في سياق تشكيل البنى المعرفية للإنسانوية لا يُقدِّم معيارًا معرفيًّا صحيحًا وواقعيًّا لحقوق الإنسان، كما لم يُقدِّم نظامًا حقوقيًّا عامًّا لتحقيق العدالة الإنسانية؛ لأن الفلسفة الوضعية في رفضها لحجية الأصول العقلية غير التجريبية ستَفشل بالتأكيد في تقديم قواعد كلية لتحقيق العدالة بين الناس؛ فالإنسان الذي تَدعو المَرجعيّةُ الإنسانوية إلى تحقيق سعادته هو إنسان ليس له بُعدٌ أعلى من العالم الماديِّ الفاني ولذائذه الزائلة، ولذا، من الطبيعي أن ينشأ عن حصر حقيقة الإنسان بالبُعد المادي والمتطلبات المادية الفانية ولذائذها الزائلة ألا تكون له إلا الحقوقُ المادية والسَّعيُ بأقصى ما يمُكِن نحو تحقيق لذائذها الزائلة فحسب، لكنَّ أيَّ عاقل يُدركُ إن للإنسان أبعادًا وجودية تُميِّزُه عن غيره من بقية الكائنات، يكشف عن وجودها المقارنةُ بين دوافعه وأفعاله، وبين دوافع وأفعال غيره من الحيوانات، فالإنسان مثلاً لديه الرَّغبة والقابلية في الكمال، بأنْ يضعَ هدفًا يَسعى للوصول إليه وتحقيقه؛ لأن الإنسان مُزوَّد في أصل خلقته بمقتضيات تجعله مؤهَّلاً لمعرفة الكمالات وتمَييزها، وقادرًا على اتِّخاذ الأسلوب الصحيح للوصول إليه، وأكبر دليل على وجود تلك القابلية هو تطوُّر المجتمعات الإنسانية عما كانت عليه، قياسًا بركود بقية المجتمعات الحيوانية وعدم تطوُّرها وتكاملها، وتلبية مشاعره وشهواته الحِسِّية فحسب لا يَضمنُ للإنسان سعادتَه الحقيقية.

وهذا ظاهر حيثُ نجد أن أكثر المجتمعات المادية تقدُّمًا ورفاهية، ونتيجة الفراغ الروحي

1 - انظر: خالد صقر: في بناء الوعي، ص81.

2 - عمر الخضر: استحقاق الكرامة الإنسانية - بحث في فلسفة نيتشه الأخلاقية، ص.ص. 10-11.

والمعنوي لدى أفردها، فإنَّ أعلى النِّسب للانتحار والأمراض النفسية حاصلةٌ فيها، كما في الدول الإسكندنافية كالنرويج، إذ تُعَدُّ النرويج ضمن أعلى الدول في معدلات الانتحار، وفقًا لأرقام منظَّمة التَّعاوُن الاقتصادي والتنمية عام 2014م، في نفس الوقت، فإنَّ النرويج تُعَدُّ ضمنَ الشعوب الأكثر ازدهارًا اقتصاديًّا في العالم[1].

ومع أن البلدان الإسلامية على نقيض ذلك، من حيث انخفاض مستوى المعيشة قياسًا بالبلاد الإسكندنافية، فإن نسبة الانتحار أو الأمراض النفسية هي الأقل بين شعوب العالم، وبذلك يتبيَّن أن الهدف الأعلى لحياة الإنسان هو تحقيق الكرامة والكمال الإنسانيَّين، وأن كلَّ ما من شأنه أن يُعين الإنسانَ على بلوغ الكمال ويحفظ له كرامته فهو من حقوقه، وأما ما يُعيقُه ويَحول دون بلوغِه كمالَه المَنشود فهو من حدوده ومُعوِّقاته.

وكمثال على ذلك: فإن الاعتراف بحقِّ ممارسة الزواج المِثلي والشذوذ الجنسي في المجتمعات الغربية لا يُعَدُّ في الإسلام من حقوق الإنسان، مع إدراكنا بأنَّ للإنسان بُعدًا معنويًّا وروحيًّا، بل يمُكِن أن نَعُدَّ تلك الممارسة حدًّا لحرية الإنسان الواقعية، خلافًا للمرجعية الحداثوية التي تُدافع عن المِثليّة وانتشارها في المجتمع، وتَعدُّها ممارسةً لأحد مصاديق حقوق الإنسان.

إنَّ النظامَ الحُقوقيَّ للمرجعية الحداثوية يُبنى على النَّفعية المادية المَحضة التي يُحدِّدها الاضطرارُ والتَّزاحُم، وهذا ما لا يَبتعدُ كثيرًا عن مرتبة واحتياجات الحيوانات، فالحيوانات تتصرَّفُ أيضًا بغريزتها على أساس دفع الضَّرر المادي عن نفسها، وواضح أنه معيارٌ أجنبي عن مسألة تشخيص المصلحة أو المفسدة الواقعية لغير الأكثرية، فضلاً عن الأكثرية نفسها؛ لأنه معيار نسبيٌّ وغير مُطلَق، ولذا فهو معيار غير كافٍ لتشخيص المفاسد من المصالح لأفراد المجتمع الإنساني؛ لأنَّ معيارَ الحقِّ الذي يثبت للإنسان، برأي الأكثرية كما تزعم، هو معيار نسبيٌّ، فمِن المُمكِن تغييرُهُ أو سلبُه بنفس الأكثرية التي صوَّتَت له، فلا تكون هذه الطريقة أو هذا المعيار مقياسًا آمِنًا في تحقيق مصالح عموم المجتمع أو تحقيق مصالح بعض فئات المجتمع، حيث سيقعون فيما فيه ضررُهم ومفسدتُهم وهو قبيح عقلاً.

---

1 - انظر: عمرو جمال صدقي: «لماذا تنتحر الشعوب السعيدة؟ عن المفارقة الإسكندنافية»، موقع إضاءات: https://www.ida2at.com/scandinavian-paradox-why-do-happy-people-commit-suicide/

ومثاله: أن مثل تلك الأكثرية تُثبت للوالدين في جميع أنحاء أوروبا تَقريبًا حقَّ إسقاط الجنين (الإجهاض)، المُحرَّم في الإسلام، لمجرد أن الإنجاب وتربية الأولاد يُسبِّبان وجودَ صعوبات اجتماعية واقتصادية، أو مشقة للوالدَين، أو سَلْبًا لحريّتهما بناء على طلب المرأة حصرًا، وهم بذلك يَسلبون حقَّ الحياة عن الجَنين حتى في حالة عدم الضَّرورة، كما إذا تزاحَمَ حقُّ الجَنين بالبَقاء معَ حقِّ الراحة لوالدية، في حين أن حقَّ الحَياة هو أقدَسُ حقٍّ للإنسان، وما سلْبُهم لهذا الحق من الجنين إلا لأنه لا يَستطيع الدِّفاع عن حقوقه، أو التَّكلُّم في الدفاع عن حقِّ نفسه، ما المشكلة في هذا المثال إذا كانَت «الأكثرية» موافقةً عليه ضمن نظرية العقد الاجتماعي؟ هل غيَّرته الأكثرية حتى يلزم منه الوقوع في المَفسدة؟ وهنا نتساءل هل أن مجرد عدم قدرة الفرد الإنساني على التعبير عن حقِّ تقرير مصيره، أو التأثير فيه، هل هو مُسوِّغٌ كافٍ لسلبه حقَّه في الحياة؟!

وهكذا الحالُ في تجويز المَنهج الليبرالي لحقِّ الإنسان في قتلِ نفسه (الانتحار) في حالة الموت الرَّحيم، وفق مبادئ الأنسنة الغربية؛ لأنهم يَنطلقون من فكرة أن الإنسان هو المالِكُ لنفسه، ويستطيع أن يفعل ما يَشاء ببدنه، لكن ليس للإنسان مثلُ هذا الحقِّ وفق المنظور الديني والإسلامي، لماذا؟ لأنه ليس مالكًا لنفسه، بل الله هو المالك الحقيقي للإنسان، وهذا الوجود وديعةُ الله عندَ الإنسان، ولذلك لا يَحِقُّ للإنسان أن يُزهِقَ نفسَه، وحتى لا يَحِقُّ له أن يُسيءَ إلى كرامته وشرَفه، بل إن الأصول المفاهيمية العظيمة للدِّين أن مَن يَظلم الناسَ يَظلم نفسَه ﴿**... وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾ [النحل: 118]؛ لأن تضييع حقوق الآخرين هو تضيع لحقوق الإنسان نفسه؛ لأن من حقِّ الإنسان أن يتكامل معنويًّا، وأن يدخل الجنة، ومع تضييع حقوق الآخرين سوف يَحرِمُ نفسَه من الفوز بالسعادة الأبدية في عالم الآخرة.

وبذلك يتَّضح أن الأكثرية لا تكون معيارًا صحيحًا لتمييز حقوق الإنسان؛ لأنَّنا لا يَحِقُّ لنا أن نمنع حقَّ الإنسان في الحياة ظُلمًا، وإن وافقَ على قتله أكثرُ الناس. ولأن الأكثرية إنما تُدافع عن مصالحها الظاهرية في النظام الليبرالي الغربي، فليست جهةً مُحايدةً لتحقيق عموم مصلحة الإنسان، إنَّ الوصول إلى معرفة المعيار الصحيح لتشخيص حقوق الإنسان الواقعية يتطلَّبُ معرفةَ فلسفة حقوق الإنسان الحقيقة، وهذه تتوقَّف على معرفة حقوق الإنسان الواقعية لا المُتخيَّلة أو المُتوهَّمة، وتشخيص مدى اتِّساعها وحدودها، وهذا ما يتطلَّبُ معرفةَ حقيقةِ الإنسان بصورة

كاملة ودقيقة، ومن ضمنها معرفةُ هويته وطاقاته الذاتية، وحقيقة الكمال الحقيقي له، فكلُّ ما يحتاجُه الإنسانُ لبلوغ كماله الحقيقي، وتحقيق الغاية والهدف من وجوده فهو من حقوقه، وكلُّ ما يُعيق من وصوله لتلك الغاية فليس من حقوقه، بل من قيوده ومُعوِّقاته[1].

د - نقد دعوى تقرير الإنسانوية لحرية الاعتقاد عند أوغست كونت

قد يُقال بأنَّ الفلسفة الوضعية عند (أوغست كونت) تَدعو إلى حرية اعتقاد الأديان والتَّسامُح مع الآخر، ويُرَدُّ على ذلك: كيف تَدعو إلى حرية الاعتقاد بعد إبادتها أو سَعيها لإبادة الأديان كافّةً، وحلولها محلَّها، وصَيرورتها دينًا إنسانيًّا يتبنَّى تأليه الإنسان وتحريرَه من الرؤية اللاهوتية، بإحلال الإنسان في موقع المركز من الوجود، من هنا يُمكِن القولُ بأنَّه رغم كون المُتداول عند الغرب من الحرية الاعتقادية هو حقّ الإنسان في أن يَختار الدِّين الذي يشاءُ، بل وأن يختار أن لا يكون مؤمنًا بأي دينٍ كان، لكن من وجهة نظر الفلسفة الوضعية عند (اوغست كونت) الشقّ الثاني هو المُتعيِّن، فالفرد -حسب الفلسفة الوضعية- هو سيِّد نفسه، ومصدر التشريع، باعتباره صاحب تفكير حرٍّ، وهو عندئذ غيرُ مُحتاج إلى مُوجِّه، لا من خالق، ولا من دِينٍ، ولا من أعراف، إذن فالفلسفة الوَضعيّةُ لم تَعترِفْ بأيِّ دينٍ من الأديان حتى تقول بكون الإنسان حرًّا في اعتناقه أو عدم اعتناقه.

ومن جهة أخرى فإن على المذهب الإنساني الإجابة إلى أي حرية اعتقادٍ يَدعو حين يَرفَعُ شعارَ اللادينية بدعوى تحرير الإنسان من اللاهوت، وجعله إلهًا ومَعبودًا، وحين جعل الأديان عرضةً للنَّقد والسُّخرية والازدراء بمقدساتها بعنوان حرية التعبير؟! ولعلَّ الرسوم الكاريكاتورية المُسيئة للإسلام ونبيِّه ﷺ، ومنع الحجاب في الأوساط الاجتماعية، أوضح شاهد على هذا التناقض الشّاسع.

وعندما يُعرِّفُ الشَّخصُ نفسَه بأنه إنسانوي (humanist) فإنَّ ذلك يَستبطن مخالفتَه ورَفضَه لمن لا يُوافِقُه في تصوُّره عن الإنسان، وإن ادَّعى أنه يستوعب الجميعَ؛ وكلُّ هذا التعصُّب ناتجٌ عن الرُّؤية الكونية الناقصة التي تتبنَّاها، فإنها نظرت إلى الكون نظرةً ماديِّةً، وغفلت عن بُعده المُجرَّد، وجعلت الإنسانَ في إطار ضيِّق، وأعطته مجالاً واسعًا جدًّا لمتابعة ميوله وأهوائه،

1 - انظر: روح الله الموسوي: الإنسان بين المعتقد الديني والأنسنة، ص116.

وقيَّدَت العقلَ مع أنَّ حرية الاعتقاد تتطلَّب بحثًا حُرًّا، يُبنى على العقل البُرهاني.

ولذا ينبغي ألا نستغرب من نظرية وُلدت على أنقاض الديانة المسيحية، وتدَّعي التسامُحَ مع الأديان، وهي في الوقت نفسه تُحاول بلهجة جازمة احتكارَ الحَقيقة، وتعميمَ رؤيتها على الآخرين، نعم تتناقض الإنسانويةُ في دعوتها إلى حرية الاعتقاد مع نفسها عندما تُلغي جميع البرامج الدِّينية في المدارس، وتَشنُّ حربًا شرسة على العلائم الدينية في الأوساط الاجتماعية (كالحجاب مثلاً)، فترُجع الاعتقادَ إلى علاقة فردية بين الإنسان وربِّه، بينما التبليغ يُعتبرَ عنصرًا مُهمًّا من عناصر حرية الاعتقاد. ولذا، فالسؤال المُهم في الموقف من حرية العقيدة هو: ما المِعيار والميزان الدَّقيق لتشخيص حقوق الإنسان في حرية العقيدة والتعبير عنها لكي يَستوفي كلُّ ذي حقٍّ حقَّه ويُدافع عنه، وبما يَرفَعُ تَزاحُمَ الحقوق المُهِمّةِ بين الناس؟!

د - نقد فكرة دين الإنسانية عند (أوغست كونت)

إنَّ الإنسانوية، وإن لم تدعُ إلى إلوهية ما، لكنها نزعَت علاقةَ الإنسان بإلهٍ خالق، كما منحَت الإنسانَ نفسَه ما هو لله؛ لأن الإنسان بحسب المذهب الإنسانويِّ حُرٌّ في فكرِه وممارسة ما يشاء، وهذا غيرُ مَعقول؛ لأنَّ الهبةَ الإلهية والمِنَحَ وإثبات شيء لشيء لا يكون من ذات الشيء، فلا بدَّ من طرفٍ يمَنَحُ لطرفٍ آخَرَ ذلك.

إن إقبال الناس على الإنسانوية، رغم أنها دعوة إلحادية مُبطَّنة، يَكمن في أنها دعوة ظاهرها إنسانيٌّ طيِّب لكنَّ باطنَها خبيثٌ دُنيويٌّ مَحضٌ، ومشكلة النَّزعة الإنسانية الغربية أنَّها وضعَت ما هو إنسانيٌّ في صراع مع كل ما هو دينيٌّ، وبصورة لا يُمكِن الجمعُ بينهما، وذلك على أساس أنَّ ما هو إلهي لا علاقة له بما هو إنسانيٌّ، والعكس صحيح أيضًا.

خاتمة

انتهينا من بحثنا هذا إلى عدة نتائج، من أهمها:

1. إنَّ الدراسة التاريخية لأنواع الإنسانوية في المراحل المختلفة لثقافة وحضارة الغرب في هذا البحث عبارة عن: مرحلة عصر النهضة، والمرحلة الحديثة المشتملة على مرحلتي عصر

التنوير، والمرحلة المعاصرة.

2. تميَّزَ تيارُ الإنسانوية ببعض المبادئ الأساسية وأهمها: الإنسان هو المحور وليس الإله، والعقل الإنسانيُّ قادرٌ على معرفة نفسه والوجود وبلوغ السعادة، ومعرفة جميع القيم الأخلاقيّة والحقوقيّة، والمنهج الحسيُّ التجريبيُّ هو المنهج العلمي الوحيد المُعتبرَ في دراسة الواقع، ولذلك فإن الإنسانَ هو المالك الوحيد لوجوده ومصيره.

3. يُعاني التيارُ الإنسانويُّ من مشاكل نظريّة وعملية كثيرة، أما النظرية منها فأهمها: الضَّعفُ المعرفيُّ نتيجة اعتمادها لمنهج معرفيٍّ أُحاديٍّ هو المنهج الحسيُّ التَّجريبيُّ، وهذا ما قادها إلى رؤيةٍ كونيّةٍ قاصرة وغير صحيحة عن الكون والإنسان.

وأمّا من الناحية العمليّة فليس من الصعب ملاحظةُ إخفاق العقل الأنسيِّ الحاكم على الغرب في ضمان السعادة للبشر؛ لعدم اهتمامه بكلِّ أبعاد الإنسان الوجوديّة، ومن أهمِّها البُعد الروحيُّ والأخلاقي، وهذا ما سبَّب الكثير من المشاكل والمآزق العمليّة، التي تركت بصماتها الواضحة على حياة الإنسان المعاصر.

4. أهمُّ النُّقود الموجَّهة للإنسانوية من الناحية الإنسانية هي نزعتها المتطرفة في الإعلاء من شأن الإنسان، من دون مراعاة كامل الأبعاد الوجودية الأخرى في الإنسان، تلك الأبعاد التي لها دور في تكامل الإنسان وبلوغه كمالَه المنشود، وخصوصًا الأبعاد غير المادية، كالأبعاد المعنوية والروحية والفطرية للإنسان، هذه النَّزعة غيرُ الواقعية ساهمَت في انحطاط الإنسان نتيجة اختزالها لحقيقة الإنسان في البُعد الماديِّ، وإغفالها الجوانب الرُّوحية والأخلاقية.

5. إنَّ المشكلة الأساسية في نقد التيارات الإنسانوية هي فقدانها لمعرفة حقيقة الإنسان وأبعاده الوجودية المختلفة وجوانبه الذاتية، حتى أصبحت تَعُدُّ الإنسانَ حيوانًا مُتكاملاً، ولذا فهي غيرُ مؤهَّلة أن تضع القوانين الصحيحة له، نتيجة إهمالها الجانب الروحي والمعنوي والفطري للإنسان، والتركيز على محورية الجانب الحيواني والمادي في حياته.

6. عدمُ كفاية الإنسانوية الناشئة عن الفلسفة الوضعية عند (أوغست كونت) لضمان سعادة الإنسان وتكامله؛ نتيجة عجزِ المنهج المعرفيِّ الحسيِّ التجريبيِّ لديها عن تلبية متطلَّبات حرية الإنسان المُتنوعة وحقوقه، وعدم كفاية البُعد الماديِّ لِسَدِّ وتَلبية مُتطلباتِ الإنسان الروحية والمعنوية.

7. إنَّ حصر الإنسانوية عند (أوغست كونت) لمنهج العقل بجانب العقل التجريبي، ورفض جميع الأدوات المعرفية الأخرى كالوحي، تسبَّب بإلقاء الإنسان في غياهب القلق والحيرة والاغتراب والاكتئاب، وفقدانه لوجود أهداف وغايات كبرى للحياة بما يجعل لحياته معنًى ورسالة، وفقدانه لوجود قِيَمٍ أخلاقية ومُثُلٍ عُليا.

8. عدمُ امتلاك المرجعية الإنسانوية، في المدرسة الوضعية، لمعيارٍ معرفيٍّ واقعيٍّ كافٍ لإثبات حقوق الإنسان، وأهمها حقُّ الإنسان في اختيار العقيدة المناسبة، وحقُّ التعبير الصحيح عنها؛ ومنشأ ذلك العجزِ هو اعتمادها لمنهج معرفيٍّ أحاديٍّ هو المنهج الحسيُّ التجريبيُّ، العاجز عن تلبية مُتطلَّبات حريةَ الإنسان المُتنوِّعة وحقوقه.

لائحة المصادر والمراجع

باللغة العربية

1. القرآن الكريم

2. الآمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم، تحقيق: مهدي رجائى، دار الكتاب الإسلامي، قم، لا ط.، 1410 هـ.

3. البهي، محمد، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي مصر، مكتبة وهبه، القاهرة، ط10، د.ت.

4. جوادي الآملي، عبد الله، تسنيم في تفسير القرآن، تحقيق: عبد المنعم الخاقاني، دار الإسراء للطباعة والنشر، بيروت، ط 2، 1432 هـ- 2011 م.

5. حباتر، سعد عبد العزيز، نماذج من الفكر المعاصر، جامعة عين شمس، القاهرة، لا ط.، 2011 م.

6. الحفني، عبد المنعم، الموسوعة الفلسفية، دار ابن زيدون، بيروت، لا ط.، د. ت.

7. الخضر، عمر، استحقاق الكرامة الإنسانية - بحث في فلسفة نيتشه الأخلاقية، جروس برس ناشرون، طرابلس - لبنان، لا ط.، 2015م.

8. الداوي، عبد الرزاق، موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر، دار الطليعة، بيروت، لا ط، 2000م.

9. صقر، خالد، في بناء الوعي، مركز تفكر للبحوث والدراسات، القاهرة، ط1، 2014 م.

10. طلعتي، محمد هادي، الهيومانية دراسة تحليلية للجذور والأسس، ترجمة: حسن علي مطر، العتبة العباسية - المركز الإسلامي للدراسات الإسلامية، كربلاء، ط1، 2021م.

11. فيري، لوك، الإنسان المؤله، ترجمة: محمد هشام، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، لا ط، 2003 م.

12. كاسيرر، أرنست، رساله اى درباره انسان [رسالة حول الإنسان]، ترجمة: بزرگ نادر زاده،

پزوشگاه علوم انسانی ومطالعات فرهنگی، طهران، ط3، 1380 هـ.ش.

13. لو، ستيفن، الإنسانوية: مقدمة قصيرة جدًّا، ترجمة: ضياء ورَّاد، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، 2016م.

14. المصري، أيمن، أصول المعرفة والمنهج العقلي، دار الأميرة، بيروت، لا ط.، 2012 م.

باللغة الأجنبية

1. Grudin Robert؛ Humanism ؛Encyclopedia of Brittanica; macropodia15 ؛th edition, 1993.

2. Law Stephen, Humanism: A Very Short Introduction, New York, OUP Oxford, First published, 2011.

المواقع الإليكترونية

1. مجلة الدليل، موقع مؤسسة الدليل للدراسات العقدية التابعة للعتبة الحسينية المقدسة، العدد: 16، 2022م.

2. موقع إضاءات. https://www.ida2at.com/

3. Frederick Edwards, “What is Humanism”; in: The American Humanist Association.com

4. Paolo Castellina & Alison Bailey, Christian Church or Religious Humanism? in: www.secularHumanism.com.